

المحاضرة الرابعة: ثنائيات دوسوسير

تمهيد :

إن رغبة سوسير في الدراسة العلمية للظاهرة تفرض عليه تحديد الموضوع أولاً، والمنهج ثانياً حتى يجعل العلم الجديد مستقلاً من جهة، ويتكئ على أسس ومبادئ خاصة به من جهة ثانية.

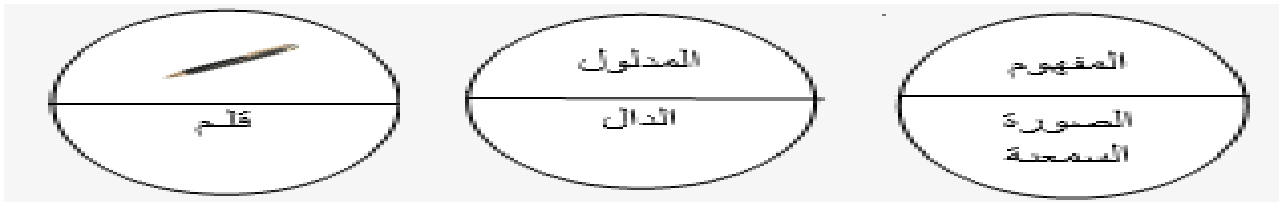
فبعد التفكير المعمق والتحليل الدقيق توصل سوسير إلى القناعة بأن "الموضوع الوحيد والحقيقي للسانيات هو اللسان في ذاته ومن أجل ذاته"⁽¹⁾.

وعليه فمادة اللسانيات هي مجموع الأحداث اللغوية، أما موضوعها فهو اللسان منه وإليه؛ أي أن الدراسة تنحصر في البنية اللغوية دون اللجوء إلى ما هو خارجها. وقد تبلورت جهود دوسوسير في مجموعة من الثنائيات المتعارضة:

1- الدال / المدلول (الدليل اللغوي أو العلامة اللسانية Signe Linguistique):⁽²⁾

العلامة اللسانية ذات طابع نفسي تتركب من وجهين الوجه الأول هو: الدال (Signifiant) / الصورة السمعية (Image Acoustique)، والوجه الثاني هو: المدلول (Signifie) / الصورة الذهنية أو المفهوم (Concept) فمثلاً عند قولنا: أسد. فالدال: هو تحقق نطقنا وسماعنا للأصوات (أ، س، د). أما المدلول فهو: مجموع السمات الخاصة بهذا الحيوان التي نستحضرها على مستوى الذهن من أنه: +حيوان+مفترس+ متوحش+ ...

فالعلامة اللسانية ليست الدال وحده ولا المدلول وحده، وإنما هي مجموع بعضهما بعض فهما مثل وجهي الورقة الواحدة؛ لا يمكن الفصل بينهما فحضور أحدهما يستدعي بالضرورة حضور الآخر. ويمكن لنا التمثيل كذلك بالشكل الآتي:



وقد ركز دوسوسير على الجانب الذهني من الدليل اللغوي (الصورة السمعية في الدال والمفهوم في المدلول). ورغم طابع العلامة اللسانية المركب من جزأين (الدال / المدلول)، إلى أن العلاقة بينهما اعتباطية.

(1) - م ن، ص 222 .
(2) - ينظر: كلا من، زبير دراق، محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامّة، ص 63، 68...، وينظر: مدخل إلى المدارس اللسانية: سعيد شنوقة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط1، 2008، ص45 وما بعدها. وينظر: مصطفى غلفان، في اللسانيات العامّة، ص229 وما يليها.

تعني الاعتباطية عدم وجود ما يلزم ارتباط الاسم بالمسمى؛ أي أن العلاقة بينهما غير معللة/ مبررة.

فالدال يفرضه المجتمع بالقوة على المتكلم المنتمي للعشيرة اللسانية الواحدة، فيكتسبه كما هو. وأما المدلول فيرجع إلى التجارب اللغوية والإدراك الحسي للأشياء الموجودة في بيئة المتكلم. قال الاسفراييني (ت406هـ): "إن الأسماء لا تدل على مدلولها لذاتها إذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى، الثوب: يسمى في لغة العرب باسم وفي لغة العجم باسم، ولو سمي الثوب فرسا والفرس ثوبا لما كان ذلك مستحيلا".⁽³⁾ فكلمة رجل فالدال المكون من: ر+ قصيرة+ج+ قصيرة+ل+ تنوين الرفع، لا يمت بصلة للصورة الذهنية فالراء ليست الرأس والجيم ليست الأطراف العلوية واللام ليست الأطراف السفلية... وقال عبد القاهر الجرجاني: "لو أن واضح اللغة كان قد قال: ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد".⁽⁴⁾ ومن هنا فاختلاف اللغات دليل على الاعتباطية فمثلا: كلمة المدرسة العربية، وفي الفرنسية: L'école، وفي الانجليزية: School، وفي كل اللغات نجد هذه الاختلافات.

أما فيما يتعلق بالألفاظ المحاكية للطبيعة مثل خرير المياه ومواء القطط فهي استثناء ولا تمثل القاعدة.

2- العلاقات التركيبية والعلاقات الاستبدالية: إن نظرة سوسير الفاحصة للغة جعلته يرى بأن اللسان وحدة متشابكة بين عناصرها المشكّلة لنظامها، وأن تأليفها يتم عبر حسن استخدام اللغة في علاقاتها مع كل مستوياتها، كما وجد أن هذه العلاقات تنتظم في محورين أساسيين هما:

أ- محاور العلاقات الاستبدالية (Relations Paradigmatiques): ويطلق عليها أيضا العلاقات الجدولية أو العمودية أو محور الاختيار .

يفهم من التسمية أن للوحدات اللغوية سمات معينة تجعل بعض الوحدات قريبة من الأخرى لدرجة أنها يمكن لها أن تعوضها؛ أي تحضر في الاستعمال اللغوي بدلا منها، إن هذه الخصوصية تجعل المتكلم ينوع في سلوكياته اللغوية حسب مختلف السياقات التي يتعرض لها، والتي تسهم بشكل كبير في استدعاء اللغة باختيار ما يناسب السياق من المخزون المعرفي اللغوي، هذا الاستدعاء الذي يتم بطريقة ضمنية؛ أي في ذهن المتكلم يسمح باختيار قالب لغوي فيستحضره ويستبعد آخر فيحتفظ به للمقام المناسب. "وإذا كانت العلاقات التركيبية ذات طابع حضوري، فإن العلاقات الاستبدالية، لها طابع ضمني وتقديري. إنها لا توجد إلا في ذهن المتكلم".⁽⁵⁾

إن حدوث عملية التبادل بين الوحدات اللسانية تتحكم فيما مجموعة من العلاقات التي تجعلها مشتركة في المعنى ومن بينها:

(3)-نور الهدى لوشن،مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية الإسكندرية، 2000، ص322.
(4)-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، لبنان 1987، ص40.
(5)-مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010. ص 245.

1- الارتباط على مستوى الجذر الواحد مثل: علم، معلم، تعليم، عالم... وهذا ما يعرف في الثقافة العربية بالاشتقاق الصغير.

2- الارتباط على مستوى المدلولات مثل: تعليم، تثقيف، اكتساب، تلقين، معرفة...

3- الارتباط على مستوى الشكل أو الصوت: في هذا النوع نجد المتكلم يستدعي هذه الوحدات اللسانية مع بعضها ليس أنها تتقارب في المعنى، أو أنها من الجذر الواحد، وإنما المتحكم في ذلك الجرس الموسيقي أو الصيغة مثل: سليم، فهيم، عليم، كريم، عليم... فوجود أصوات مشتركة (الياء، الميم) ووحدة الصيغة (فعليل) هي التي جعلت المتكلم يستدعيها⁽⁶⁾.

كما قد تكون الوحدات اللسانية التي جرت عليها عملية الاستبدال وحدات صوتية (دون، كون، هون، خون، لون...).

أو وحدة صرفية (...ة، ...نا، ت...وا، ...ن، ...ا، ...تا، أحرف المضارعة أن ي ت، والأمر).

أو سمات مميزة من الجهر في مقابل الهمس...

ألف، دون، نظم، نثر، خط، وشى، قيد، سجل، أنشأ... فالتكلم استحضّر هذه الوحدات اللسانية من بين الوحدات القابلة للتعبير عن معنى العام للحدث الذي وهو الكتابة.

إن هذه العملية الاختيارية بين الوحدات القابلة للتبادل يقوم بها المتكلم/ المستمع في الذاكرة؛ أي أن العملية ذهنية تتعلق بالكفاءة اللغوية.

ب- محور العلاقات التركيبية (Syntagmatiques Relations): التركيب يتشكل دائماً من وحدتين متعاقبتين أو أكثر⁽⁷⁾. إن الوحدات اللسانية حتى تتعاقب فيما بينها لتشكل تركيباً، لا بد أن تأخذ بالضرورة موقف الحدث الكلامي الذي فرض انتقاء أو اختيار الوحدة اللسانية من المخزون اللغوي للمتكلم فالاختيار كان نتيجة الموقف التواصلية، غير أن حسن الاختيار وحده لا يكفي لتبليغ المقاصد، فلا بد من تركيب هذه العناصر اللسانية وفق نظام اللغة بدءاً من أصغر الوحدات إلى أكبر الجمل مثلاً: من المخزون اللغوي في محور الاستبدال السابق إذا أردنا إعلام المتلقي الأستاذ بأنه لا حاجة لوجود المعلومات على اللوح بسبب تدوينها نقول: كتب الطلبة المحاضرة.

بهذا نكون قد استبعدنا: دون، نظم، سجل... والموقف فرض علينا أن نقول: الطلبة، بدلاً من التلاميذ أو المتمدرسين أو المتعلمين، والشيء نفسه مع المحاضرة بدلاً من القصة أو الرسالة... وهذا ما يشكل الخطية "إن الكلمات تتعلق ببعضها البعض، وإلا فلا وجود لها. والمركب الذي يعني تعاقب وحدتين على الأقل لا يجد مكانه إلا في الخطاب. ذلك أن الوحدات تتسلسل وتوصل ببعضها البعض، فتتصف بالامتداد، وتكتسي بذلك صفة الخطية، فلأمر يتعلق إذن بالتأليف بين الوحدات المشكلة للمركب"⁽⁸⁾.

(6) - ينظر: حنون مبارك، مدخل إلى لسانيات سوسير، ص 167.

(7) - فرديناند دو سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة؛ تر، يوسف غازي و مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للنشر، 1986، ص 149.

(8) - م ن، ص 110.

فالدراسة الاستبدالية تتناول العلاقات القائمة بين الوحدات الموجودة في الجدول الواحد؛ أي أن التبادل يحدث بين الأسماء مع بعضها أو الأفعال مع بعضها وكذلك الحروف ولا يكون التبادل مع الأسماء والأفعال. أما الدراسة التركيبية فتعالج علاقات التجاور والتعارض مثلا (أل) التعريف والنداء لا تكون مع الفعل ولا مع حروف الجر، بل تخص الأسماء. وحروف الجر تختص بالأسماء دون الأفعال. من خلال ما سبق يمكننا القول: إن المقصدية تنتج من ترابط المحورين.

3- ثنائية لسان/الكلام: مع اللساني دي سوسير لم يعد الكلام مستثنى من الدراسة اللغوية كما كان مع النحاة المعياريين، الذين يهتمون بالمكتوب دون المنطوق. وذلك لأن الكلام أسبق من الكتابة، وأكثر استعمالا في التواصل اليومي. "كما اعترف العلماء المحدثين بوجود لغات عديدة مثل لغة الشم، واللمس، والبص، والسمع، واللغة الملفوظة هي أكثر الأنواع المذكورة استعمالا وتداولاً".⁽⁹⁾ وفي هذا الإطار ميز سوسير بين: اللغة (Langue) واللسان (Parole) واللغة بالمعنى العام (Langage).

* **اللغة بالمعنى العام (Langage):** ملكة طبيعية في كل فرد تجعله قادرا على التعامل مع بني جنسه ولها طابع الشمولية؛ أي أنها ظاهرة إنسانية تخص الفرد البشري باختلاف الزمان والمكان والطابع الحضاري والثقافي...

* **بين اللغة المعينة /اللسان (Langue) واللغة بالمعنى العام:** يقول سوسير: "بالنسبة إلينا يختلف اللسان عن اللغة، إن اللسان جزء محدد من اللغة كظاهرة عامة. إنه نتاج جماعي للغة ومجموعة من الاصطلاحات اللازمة التي يكتفيها المجتمع ليسمح للأفراد المتكلمين بممارسة هذه الملكة".⁽¹⁰⁾

من خلال هذا الطرح نفهم أن: اللسان مجموعة من القواعد الاصطلاحية التي يضعها مجتمع ما لاستغلال الملكة اللغوية المودعة بالفطرة في أذهاننا. فهي وبهذه الصورة لا يمكننا من وضع قواعد لها. أما اللسان فيمكن أن نضع له قواعد تخص كل مستوياته من: صوت وصرف وتركيب ودلالة. فهو يقوم على أرضية اللغة، وللمجتمع دور أساسي في تكييف الملكة اللغوية مع اللسان في المحيط الاجتماعي الذي يوجد فيه الإنسان، كما أن اللغة قدرة ووموهبة واستعداد فطري واللسان مكتسب وليس غريزي.⁽¹¹⁾

* **بين اللسان والكلام:** اللسان نظام قائم بذاته يختلف من مجتمع لآخر، وهو في اختلاف وتنوع بعدد الشعوب والقبائل. فنقول اللسان العربي اللسان الأمازيغي اللسان الفرنسي... إلخ. وفيما يلي أهم الفروقات بين اللسان والكلام.⁽¹²⁾

(9)- زبير درافي، محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامّة، ص 70.

(10)- مصطفى غلفان، في اللسانيات العامّة، مرجع سابق، ص 216.

(11)- ينظر: م ن، ص 17.

(12)- ينظر: م س، ص 72.

الكلام	اللسان
- نشاط لغوي فردي. - إبداعى ذاتي كل فرد يستعمل هذا النظام كما شاء. - يدرس دراسة سيكولوجية (فيزيائية). - حصيلة الاستعمال؛ أي ما يقوله المتكلمون. - غير جماعي؛ فردي فهو متغير. - ثانوي.	- مؤسسة اجتماعية لا دخل للفرد المتكلم فيه. - حتمي مسجل سلبا في الذاكرة؛ يأخذه الأفراد كما هو. - يدرس دراسة سيكولوجية (نفسية). - حصيلة ما يسجل في كل مخ. - نموذج اجتماعي، فهو ثابت نسبيا. - جوهري.

ورغم تحديد هذه الفروقات إلا أن سوسير يبين ضرورة الترابط بينهما، لأن العلاقة بينهما علاقة تلازم ف: "اللسان ضروري ليكون الكلام، لكن الكلام بدوره لازم ليكون اللسان. وكما أن اللسان ضروري حتى يحدث الكلام أثاره ويكون ملموسا، فإن الكلام ضروري لانتظام اللسان... والكلام هو الذي يطور اللسان وينميه".⁽¹³⁾

4- التزامن، التعاقب: انطلاقا من أن اللسان ظاهرة اجتماعية فهو لا محالة خاضع للتطور والتغير في جميع مستوياته، وبما أن سوسير ينشد الدقة في دراسة اللغة وفق المنهج العلمي لما يقتضيه الواقع اللساني من جهة، وتأسيا بمفهوم القيمة، وبوجود الدال والمدلول في اللسانيات من جهة ثالثة، أكد على ضرورة التمييز بين محورين في الدراسة اللسانية وهما:

- محور التزامن أو الدراسة الآنية (Synchronie): وموضوع هذه الدراسة القيام بوصف اللغة في حالة زمنية محددة، ويمكن تسميتها باللسانيات القارة.

- محور التتابع، أو الدراسة الزمنية (Diachronie): وموضوع هذه الدراسة تتبع تنقل حالة كلامية عبر مختلف الحقب الزمنية، وعليه يمكن تسميتها باللسانيات التطورية.

إن سوسير يفضل الآني (الحاضر) على التاريخي؛ لكون الآني هو الحقيقة ذاتها بالنسبة لكل مجتمع لغوي، فالتغيرات الحاصلة لمفردات لغة ما عبر مختلف الحقب الزمنية لا تهم مستعمل اللغة، كما أنهم لا يدركون هذا التغير، فهم يكتفون بالأداء الفعلي في الواقع المعاش. كما أن رغبة سوسير في تحرير اللسانيات من كل تبعية تاريخية بكل معطياتها النفسية والاجتماعية والثقافية... والتي من شأنها التأثير في اللسان وصيرورته الفردية والجماعية جعلته يفضل الدراسة الآنية.⁽¹⁴⁾

مثال: أن تدرس أسلوب النفي في سورة قرآنية، أو تصف أنماط الجملة الاستفهامية في عصر محدد وفي بيئة محددة فهذان دراستان آنيتان. وفي الجانب الدلالي نمثل للدراسة الزمانية أو التعاقبية بكلمة: Salary التي تعني: المرتب من أي نوع في وقتنا؛ أي في حالة الاستعمال، لكن دلالتها التاريخية تعني: حصة الجندي من الملح. وكذلك كلمة:

(م-س، ص221، 222)¹³

(14)- ينظر: مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة، ص 79، 80، 81.

Marechal وهي الرتبة العسكرية المعروفة لا يتحصل عليها المنتمي إلى السلك العسكري إلا بعد سنوات عديدة من الخدمة، إلا أن دلالتها كانت تطلق في أصلها الجرمانى على خادم الإسطبل أو السائس.⁽¹⁵⁾

(15)- ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، علم الكتب، القاهرة، ط5، 1998، ص 244، 247 .